الفـرار

ـ طلقنى ·

مجرد كلمة صرخت بها الزوجة ·· لكنها تعدل طعنة او قذيفة فتكت بكرامة الزوج ·· هـذا الذى تسمر مكانه يرمقهـا بعينين مذهولتين ·· ويركز بصره على شفتيهـــا الرقيقتين ·· القاسيتين ·· والتى ما زالت تكرر الكلمة فى عناد واصرار ··· مؤكدة أنها فى كامل وعيها ·· ترنح الزوج من أثر الطعنة ··· ارتج عوده ·· أحس بأن الدنيا تغيم فى عينيه فتهالك على أقرب مقعد ·· وجعلت نفسه تتلوى من فرط الاهانة ·

فى نافذة الشقة الموجهة ·· كان الحبيب العاشق واقفا ·· عيناه على نافذة حبيبته المغلقة ·· صكت الكلمة أذنيه ·· الكلمة لها ثقلها ·· وانها تعـد لديه ·· صرخة ألم ·· هتاف يطـالب بالتحرر من هول القيد ·· وظلام السجن ·· الكلمة تؤكد ما بينهما ·· وتلقى على كاهله التبعة ·· ذرفت عيناه الدموع ·· ما أطيب

التبعة الى نفسه ! وما أحبها الى قلبه ! .. انها الحلم الذى طالما راوده .. وكم تمنى لو تفوه أبو باح به .

أفاق الزوج قليلا من صدمته .. وخصـــوصا حينما ذهبت عنه الى مكان آخر .. عاد عقله المرتاب يعمل بنشاط غير معهود .. تساؤلات الشك أسياخ حديدية تخرق صدره .. ان هذا التحدى ليؤكد عهدها مع غيره ..

– وهل .. هل هناك من هو أفضل منى ؟ .. لو صح ذلك لرد أهلها يدى .. أو .. أو انها تبغضنى .. ظننت أنها ستتعود هذه الحياة حين تعمى عن غيرها ..

تأوه فى لوعة مستطردا :

– كيف أوقف تمردها وعصيانها .. وأجبرها على الاذعان لرغبتى ورؤيتى .. دبت الحمية فى عروقه .

– لن أتيح لها الفرصة .. لن أطلقها .. ولأدوس كبرياءها .. وأحطم أنفها .. ولتذعن لارادتى .

عاش الثلاثة .. الزوجين والعاشق .. أياما مرت ساعاتها ثقيلة .. سمجة .. فهى تحلم بالفرار من ظلام الزوج الى بهـــاء العاشـــق .. والزوج يعيش بين وخـزات الظنـــون .. وعقدات الشكوك .. والعاشق أسير فكرة يفتش عن ثغر ينفذ منه الى حبيبته فيرحمها ويرحم نفسه من العذاب .. وكان قد عشق النافذة التى كانت بمثابة طاقة الأمل التى يطل منها قمره .. والنافذة قد أغلقت .. سدتها يد السجان .. وها هو فكره ينطلق من عقاله ويدبر أمـــرا .. !

فى ليلة الزفاف .. أول أيام العسل .. قال ببساطة :

– عدينى بألا تفتحى النوافذ ..

مطلب جائر ·· غريب !! لابد أنها غير الحبيب الولهان ·· ابتسمت فى خفر ·· وكانت الابتسامة أبلغ رد ·· فى صـــباها داعبتها الأحلام ·· بعينى صباها رأت السجن ·· يفيض عذوبة وجمالا ·· ويزخر بالسحر والسعادة ·· وقد خطت اليه باسمة الثغر ·· راقصة القلب ·· تنتظر مجهولا فى شوق ·· والعش السعيد تبرق محتوياته ·· داخله دنيا تتلألأ ·· تصل الى مسمعها بقايا الزغاريد تنبىء بفيض من النشـــوة والفرحة ·· وكانت سخرية الأقدار ·· كانت مؤامرة دبرتها الأيام ·· كانت خدعة حاكتها أحلام الصبا ·· تحقق الحلم ·· دخلت السجن ·· وكان سجنا حقيقيا ·· بل أشد قسوة ·· ففى السجون فتحات تطل على الحياة ·· سجنها حوائط صـــماء ·· أغلقت نوافذها يد زوجها بذلك الوعد المشئوم ·· والصمت ·· أضحى أنيسها الوحيد ·· فى صمت ترى ما يحيطها من جماد صامت فاقد الروح والحس ·· فى صمت تروح وتغدو وقتا طويلا لا نهاية له ·· لا تسمع الا وجيب قلبها ·· فى صمت تتألم ·· لسانها لا ينطق الا التأوهات ·· الأفكار فى رأسها تتناطح وتتفاقم ·· داخلها يئن ·· أنوثتها ·· آدميتها أرجوحة يلوحها الهواء العفن ·· الثقيل ··

سئمت الصمت ·· سئمت التجوال فى مناحى السجن ·· فقط تبكى ·· تصاحبها الدموع منذ أول أيام العسل ·· ولم تعلم أن للعسل مذاقا مرا ·· العالم خارج السجن ·· يرقص ويهلل ·· ويومض بالضياء ·· والأيام تعدها أعمارا ·· خارج السجن ·· زغاريد ·· وترانيم حـلوة ·· وكـلام ·· ما أحلى الكـلام ! ·· وكيف تتكلم ·· ومع من تتكلم ؟ ·· مع سجانها ؟ ! وأنى يتحدث السجين مع سجانه ·· أنى يصفو له ليحلو الحديث ·· كادت أن تنسى بنى البشر ·· ملت أن ترى تقاطيعها ·· !

سح العرق من نبت شعرها .. العالم خارج السجن يقيقه .. انه يسخر منها .. يغيظ لها .. فى الخارج البهاء والحب والنشوة .. فى الخارج الشباب .. الشباب فى جسدها يصرخ ويستغيث .. نفسيا تتحرق الى الحرية مهما كانت التضحية .. مهما كان الثمن .. الحرية هى الحياة ..

فى ذلك اليوم عاد الزوج من عمله .. قطع الدرج فى عدة قفزات .. وقف أمام باب الشقة المغلقة .. ابتسم .. أخرج المفتاح من جيبه .. قبل أن يمس المفتاح الرتاج انفتح الباب .. ارتد الى الوراء مذعورا كأنما أصابته لطمة .. تأمل الباب المفتوح .. أخاله ماردا فاغرا فمه ينوى ابتلاعه .. تقدم خطوة :

ـ اذا كان باب السجن مفتوحا .. فأين السجين ؟ .. أين ؟ ؟ !

صرخت نفسه .. أين السجين ؟!! .. الرتاج محطم .. أهى التى حطمته .. ؟ .. أو أن هناك شريكا .. ولكن .. من يكون هذا الشريك ؟ .. مستحيل .. خطا داخل الشقة .. قلبه يدق فى رهبة كمن تسوقه قدماه الى شرك . فاجأه الضوء المنبعث من النافذة ! .. التفت اليها فى ذعر .. النافذة مفتوحة على مصراعيها .. النسيم يدخل باردا .. قلب الشقة بحثا .. الرعدة تسرى فى سائر أعضائه وتتجمع فى قلبه وأطرافه .. الأفكار تتزاحم فى رأسه .. الصداع يشل تفكيره .

شعرت الزوجة بالاختناق يتشبث بصدرها ويزحف الى عنقها .. نظرت الى النافذة المغلقة .. تذكرت الوعد الجائر الغريب .. فى الخارج الحرية البيضاء .. من هذه النافذة سأطل على الحياة .. والوعد ؟؟

ـ وعد ؟ ! أللسجانين وعـــود ؟؟ ·· اندفعت تحنث فى وعدها وتفتـــح النافذة ·· انفتحت ·· هلت رائحة الحيـــاة ·· تنفست من أعماقها ·· تحركت عيناها الجامدتان ·· دبت الحياة فى صدرها وانتشرت فى جسدها ·· أطلت الى الشارع ·· صبية يلهون بلا ضوابط ولا قيود ·· بلا سجان ·· ما أروع الماضى ! ·· رنت الى السماء ·· كم هى ممتدة الأطراف ·· فى الفضاء تطير الأطيار ·· تهفهف وتحلق فى حرية ··

ـ ليتنى عصفورة فأهيم فى الفضاء ·· أقف على الأغصان ·· أداعب الورد ·· وأحاور الزهر أطير فى حرية كما يحلو لى ·· ·· وأملأ الدنيا بشدوى السعيد ··

كل نوافذ الشارع مفتوحة تستقبل الحيـــاة ·· النسائم تداعب الستائر ·· فى النافذة المواجهة كانت عيناه ترقبانها ·· لعلها كانت مثيرة للانتباه حين استقبلت أول نسائم الحـــرية ·· لابد أن عينيها لمعت وخدها تورد ·· لابد أنها ابتسمت للنسيم ·· ما قصدت أن تجذب الأنظار ·· ولا أن تثير الفضـــول ·· فقط كانت تتوق نفسها لأن تتنسم هواء الحرية التى حرمت منه أياما·· ساعات الأسر لا تنقضى ·· رغما عنها رفعت جفنيها لترى صاحب العينين ·· كانت متلهفة لرؤية آدمى غير زوجها ·· وجهه باسم ·· ما أجمل البسمة ! ·· قفزت صورة زوجها ·· وجهـــه المقطب ونظراته المتشككة ·· نظرات الشـــاب متفائلة واثقة ·· هو على النقيض من زوجها فكرا وسلوكا وطباعا ·· طالت النظـــرة ·· أيضـــا برغمها ·· فلم تلتفت الى ناحيـــة أخرى لتبدو طبيعية ·· اكتفت بقسط الحـــرية ذاك ·· انسحبت وأغلقت النـــافذة ·· وما زالت الابتسامة عالقة بشفتيها ·· مسح لسانها شفتيها كأنما تتذوق طعم الحرية ·· أكبرت فكرها الذى أوحى لهـــا ·· لم

تشعر بالندم .. لا ضير من التكرار طالما لا تخدع زوجها ولا تنتوى خيانته ..

مرت أيام .. المشاهد تتكرر لعينيها .. يعود اليها السأم .. أهذه هى الحياة الزوجية .. لقاء فى المخدع لقضـــاء متعة رخيصة .. أهذا منتهى الحلم ونهاية المطاف .. اليـــوم طويل بلا نهاية .. الفراغ يتسع من حولها وفى داخلها .. الضـــياع يحتويها ..

ذهبت تمارس عادتها الجديدة .. فتحت النافذة .. فى هذه المرة لم تستطع أن تنأى بعينيها فى ناحية أخـــرى .. فى عينيه شىء يجذبها .. يناجيها .. ابتسامته لا تخدش حياءها .. بل تعطيها الأمان .. فى عينيه نسيت كل شىء .. حتى نفسها ..

الأمل يبرق من جديد .. مصدر البريق النافذة .. عاشت أيامها سعيدة .. بقدر ســـعادتها يكون قلق زوجها .. وزيادة نجهمه .. وجه صاحب العينين صبوح مشرق .. شتان .. الرباط بين النافذتين تشتد أواصره .. بدأت النظرات مصادفة .. ثم أصبحت ولهى .. ثم أحاديث العيـــون الطويلة .. وابتسامات عذبة .. انسلاخ من العهود لقـــاء نافذة على حريتها .. وكثيرا ما حدثت زوجها دون حديث .. !

– أنت الذى أغلقت النـــافذة .. وأنت الذى أرغمتنى عـــلى فتحها لأتنسم الهواء .

.. قوى الرباط بين النافذتين .. تحدثا فى همس .. بثت اليه شكواها .. وكشفت عن لواعجها وما صنعت بها الأيام بين الجدران .. وكان حديثها أشعة وجدت طريقها الى قلبه .. تحاكيا كثيرا .. لو تدانيا لتعانقا عناقا حـــارا .. ولانتشر الدفء فى

جسـديهما المقرورين ·· انفتـح أمامها بحر فياض بالسعادة ·· تغترف فيه أنى زحف اليها الملل ·· عند لقائه ·· وحين تستعيد أحاديثه ·· والزوج شارد اللب ·· حائر العقل ·· زائغ العينين ·· لا يدرى سر سعادتها التى لم تفلح فى اخفائها ··

قبل الأسر ·· كانت تود الانفلات من التقاليد والانطلاق فى الحياة ·· تستقى لذات أحلها الله ·· ولكنها فلتت من قيد الى سجن ·· ما ذنبها لتسجن ؟ ·· ما جنايتها ؟! ·· كان بودها أن تعيش لحليلها بقلبها وعقلها وكيانها وجوارحها ·· لكنه طمس هذه الدرر بسـجنها ·· كرهت القيد ومن قيـدها ·· عشقت حبيب النافذة ·· ملاك الحرية السليبة ·· لكن ما هى الخاتمة ··؟ ·· وكيف تكون ؟ ·· ومتى تتحقق ؟ ·· الأمل ينغص عليها سعادتها ·· الاجابات مبهمة ·· والردود مبتورة ·· ولا يجنيان الا الحيرة ·· يجب ألا تتوقف العلاقة عند هذا الحد ·· وهل للحب حدود تعوقه ؟ ·· الانسانية فى أعماقها تصرخ محتجة ·· شبابها يتمرد عليها ·· ماذا بعد الحرية الا الانطلاق ·· وبات الصراع على أشده بين مجهولها الغامض ·· وواقعها المرير ·· ولوعة من أجل الشباب وملاك الحرية الحبيب ··

وفى هذا اليوم ضبطها الزوج متلبسة تتنسم هواء الحرية من النافذة ·· يا للهول ·· لا ريب أنها ستعرف حلاوة الحرية وتتعودها ·· دخل الشقة مزمجرا ·· مزقته الريبة اربا ·· فلقد نسى السجين الوعد ·· لم يتوان عن احكام غلق النوافذ بحيث يستحيل عليها فتحها ·· استراح لهذا التصرف ·· وعادت اليه السكينة ·· ابتسم حين اندلعت صيحاتها دفاعا عن نافذة الحرية ·· وانهالت بتساؤلها عن جنايتها ·· لـم يجب ·· بل اتسـعت ابتسامته ·· واستطرد لسان حالها :

– ليتنى عشت عانسا .. ليتنى خلقت طيرا ...

– سأرغمها أن تحس الحرية بين هذه الجدران .. فى هـذا الحصن .. لن ترى الا صورتى .. ولن تسمع الا حديثى ..

... علا صوته مقهقها ساخرا .. وجهت اليه نظـــرة حقد يفعمها اليأس .. وكم انشرح صدره .. فبعد اليأس يكون التسليم والاستسلام ..

كانت تلك الليلة وحشية .. صاحبها الســـهاد .. فى منتصفها لم تطق أشواك الفراش .. قامت وهرولت الى النافذة .. تأملها فى حنان كأم وطفلها الجريح .. جثت على ركبتيها تتأوه وتبكى بكاء مكتوما .. القمر يرسل أشعته من خلال فتحات النافذة .. القمر يسرى عنها .. أتت نسمة واهنة داعبت خدها .. لعلها أنفاس حبيبها تحوطها .. لا ريب أنه ساهر يئن مثلها .. وأنه قد علم ما حل بها وبنافذتها .. ان العصـــفور يموت فى قفص الذهب كمدا على حريته وانطلاقه فى الحياة .. جعلت تنبش فى طاقة الحرية المسدودة .. ولكن أنى للفأر أن يحطم قضبان مصيدته بأظافره الرقيقة ..

أودع الصراع النفسى وهنا فى جسدها .. لكنه لم ينبش عزيمتها .. وأبدا لم يطفىء ثغر الأمل الذى يلوح لها .

فى اليوم التالى ما أن سمعت صوت ولوج المفتاح فى الرتاج حتى قامت مثقلة بكلمتها القذيفة .. وضعتها على طرف لسانها .. قذفت بها فى وجهه دون أن تأبه بعواقبها ..

لم يمت العصفور فى قفصه الذهبى – شوقه للحرية قوى ســاعديه .. أطال مخـالبه .. وسن منقاره .. تحول الى نسر

جسور ·· دافع عن حريته دفاع النمر الجريح ·· حارب بشراسة أم تحمى وليدها ·· حطم قضبان السجن بعد أن لطختها دماؤه ·· وها هى آثاره ·· هرب العصفور الى وليفه ··

والسجان قتل الدنيا بحثا ·· وعاد ·· عاد الى عشه وحده ·· قلبه ينزف غيظا وحسرة ·· يبكى هزيمته وخيبته ·· ولم يدر أن العصفور ما سرق الا حريته ·· وأيضا لم يتعلم الفرق بين الغناء والبكاء ·· وأن الطائر يشدو حينما يكون فى أعالى الأغصان ·